الكتاب الجديد

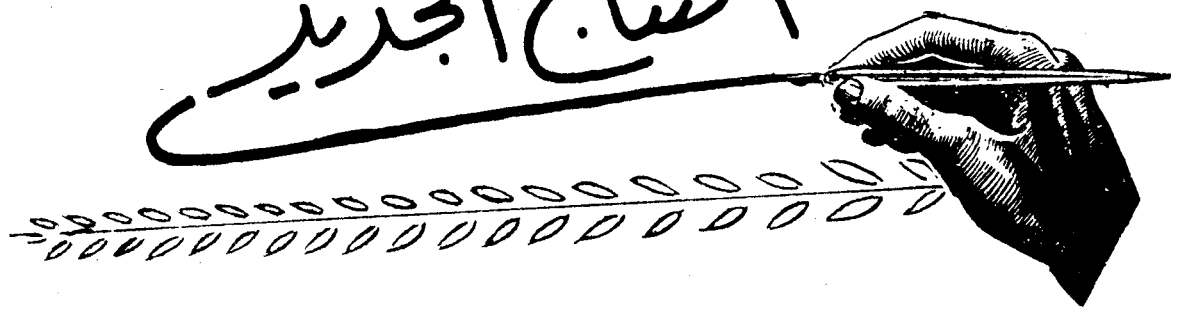

رواد الفكر الاشتراكي

تأليف ج. هول ـ ترجمة منير البعلبكي

منشورات دار العلم للملايين ، بيروت ـ ٥٣٠ صفحة

*

لم يحظ ـ في هذا العصر ـ اي موضوع بعناية المفكرين واهتمامهم كموضوع الاشتراكية ، ذلك ان الاشتراكية على اختلاف معانيها ، وتعدد الاقوال فيها يجمعها قاسم مشترك لا يختلف فيه اثنان ، وهو اقامة حياة افضل فلا بدع اذن ان ينتحلها ، ويتخذها شعارا المخلصون والانتهازيون على السواء من السياسيين وغير السياسيين حتى موليه الذي اشترك مع اسرائيل في الاعتداء على بور سعيد يتزعم حزبا « اشتراكيا » .. وحتى هتلر الذي اشعل نار الحرب ، وقتل الملايين كان ينادي بالاشتراكية .. وهذا حزب العمال في انكلترا يناصر الصهيونية والاستعمار ، ويدعي الاشتراكية ..

واقبل حملة الاقلام على الكتابة في الاشتراكية يضعون فيها المجلدات الطوال والقصار ، ويدبجون المقالات في الجرائد والمجلات تلبية لرغبة القراء ، وكتب عنها اكثر من واحد ، وهم لا يحفظون منها الا الاسم ، وكتبت انا مقالا مطولا ومتسلسلا سنة ٣٦ في بعض المجلات ثم تبين لي اني كنت فيه كحاطب ليل ، بعد ان اقبلت على قراءة كل كتاب او مقال يحمل هذا الاسم بخاصة اذا كان منقولا عن لغة اجنبية ، ومضيت في قراءة الاشتراكية اكثر من عشر سنوات ، ثم تركت ـ متخيلا ـ انه لا جديد بعد الذي رأيت ، حتى اهداني الاستاذ منير بعلبكي كتاب « رواد الفكر الاشتراكي » فاستأنفت ، وقرأت منه الشطر الاوفى ، فوجدته فريدا وجديدا في اسلوبه وتبويبه ، وفي شموله واحاطته بكل ما يتصل بالاشتراكية من قريب او بعيد .

لقد حامت العقول ـ منذ القديم ـ حول الاشتراكية دون ان تكتشف حقيقتها واسسها ، ثم توالت الحوادث على مر الايام من الثورة الفرنسية ، واعلان حقوق الانسان الى الثورة الصناعية ، وتكديس الثروات ، وتجمع العمال ، واستغلال الفرد للجماعات ، فتبلور معناها شيئا فشيئا ، وان اختلف روادها في تحديدها ، وما يعتبر فيها وفي كيفية تطبيقها ، والطريق الموصل اليها .

وهذا ما تصدى لعرضه ودراسته ، « ج.د.هـ. كول » في كتابه « رواد الفكر الاشتراكي » الذي نقله الى العربية الاستاذ منير بعلبكي في ٥٣٠ صفحة بالقطع الكبير ووضع له اربعة فهارس : الاول للشخصيات الرئيسية ، والثاني للاعلام ، والثالث للموضوعات ، والرابع للمراجع العامة ، وقد استغرق هذا الفهرست الاخير ٣٨ صفحة من الحرف الدقيق لانه تعرض للسنة التي طبع فيها المصدر ، ولعدد الطبعات وللغة التي الف فيها ، ونقل اليها ، وجاء مرتبا ومبوبا حسب فصول الكتاب .

*

ابتدء المؤلف بلفظة الاشتراكية : متى استعملت ؟ ومن سبق الى استعمالها ؟ ، واي معنى اريد منها في بدء الاستعمال ؟ وهل هناك صلة بين معناها الاول وبين المعاني المتأخرة ؟ ثم فرق بين اقسامها ، وتكلم عن روادها واحزابها ، وعن الظروف والملابسات التي احاطت بكل رائد ، واوحت اليه بافكاره وارائه ،وعن صلة النظريات الاشتراكية بالثورة الفرنسية ، والثورة الصناعية ، والفلسفة المادية ، ونبه على ان كثيرا من الذين عدهم الناس من الاشتراكيين ليسوا منهم في شيء الا في مشاركة الاشتراكيين بحب الخير والسعادة للجميع ، وعدم الثقة بالنظم السائدة ، كما بين السبب لنجاح من نجح ، واخفاق من اخفق من دعاة الاشتراكية ، الى غير ذلك من البحوث القيمة التي حواها هذا السفر اليتيم ، والتي تعطي القراء صورة واضحة كاملة عن النظريات الاشتراكية وبواعثها ، واهدافها ، وتاريخها ، وصلتها بالاحداث والحركات ، وما احدثته من مفاهيم جديدة تتصل بحياة الناس والمجتمعات .

هذا ، الى ان القاريء المثقف الفهيم يجد ما بين السطور وفيما يعرضه المؤلف من اقوال واراء حلولا لبعض المشكلات الفلسفية التي كانت تنتظر الحل منذ امد بعيد ، والملاحظ ان صاحب الكتاب قد عني باقوال ماركس بصورة خاصة ، فتتبعها جميعا ، وحرص كل الحرص على ان يرجعها الى من تقدم عليه من قادة الفكر ، حتى لم يدع له شيئا مذكورا .

واذا اردنا ان ندلل ونثبت صحة الترجمة ودقتها وروعتها فيكفي لذلك كله ان نذكر اسم الاستاذ منير بعلبكي الذي عرفه قراء العربية جيدا في سلسلة علم نفسك ، وغيرها من كتب الادب والثقافة ، وعرفوا فيه عبقرية الفكر ، وصفاء الاسلوب ، واحترموا في شخصه العلم والامانة ، وقدروا له ما اسداه للمكتبة العربية من خدمات في مجال المعرفة والثقافة .

ومن اهم ما يمتاز به الاستاذ منير انه ينقمص روح المؤلف حين يترجم من الانكليزية الى العربية ، ثم يضفي على افكاره من ذوقه الادبي السليم ، واسلوبه الرائع المبين ، وليس من شك ان اسمه سيحتل الصدارة في تاريخ الترجمة ، هذا الى مكانه المرموق كمفكر ، ومنتج ، واديب ، بل استاذ الادباء ، ينقل اليهم ثمرات العقول النيرة باقرب السبل وايسرها .

وبعد ، فمن اراد ان يتفهم الاشتراكية ، وتاريخها ، وتطور تطبيقها في مختلف الادوار فلا غنى له عن كتاب « رواد الفكر الاشتراكي » اما من يقتنع بالدون من ذلك فهو في غنى عنه .

بيروت — **محمد جواد مغنيه**

وانسدل الستار

مجموعة تمثيليات – ترجمة سمير شيخاني – ٢١٠ ص

*

اذا كانت النهضة الادبية تقتضينا في بلادنا العربية ان نفيد من انتاج الاخرين ، وكان لنا ان نعمل بما تقتضيه تلك النهضة ، فاول ما ينبغي ان نتجه اليه في ترجمة اثار الاخرين ، انما هو ادب المسرح اولا والقصص ثانيا .

ذلك لان مجتمعاتنا القديمة كانت حتى في ازهى عصورها ، وابرز مآثيها ، غريبة عن هذين النوعين الادبيين بمفهومهما الحديث .

لم يتح للمسرح ولا لادبه ان ينتشر في قرطبة ، ولا في بغداد ، ولا في القيروان ، ولا في دمشق ، يوم كانت هذه العواصم ملء اسماع الدنيا وابصارها ، ومصدر اشعاع للفكر والشعر والحياة الروحية والبحث العلمي ، وان اتيح للقصص ، على نحو ما ، وبطريقة ما ، ان يشق طريقه الى حياة السواد ، ويعطي بعض الاثار التي لا تزال الى يومك هذا موضع الاعجاب ، ومثار الدهشة ، وينبوع ايحاء ... والسر في خلو الادب العربي من المسرحيات يعود الى اكثر من عامل اجتماعي وروحي ، ونفسي ، وتاريخي .

واية كانت العوامل التي حالت دون ظهور هذا النوع في دنيا العرب السابقة ، فان عالم العرب اليوم نشط الى تدارك ما فات ، والاطلاع على كل ما رفض من قبل الاطلاع عليه ،واخذ يسير في ركب الحضارة الحديثة ، يستقي من آدابها ، ويستوضح ما خفي من اسرارها ، ويسهم الى حد ، في توجيه احداثها .

وها هو الاستاذ سمير شيخاني يقوم بجهود مشكورة في نقل بعض الاثار المسرحية الى لغة العرب ، ويعنى عناية كبرى باختيار ما ينقل ، ويجدفي اعطاء هاتيك الاثار صيغة عربية سليمة ، فبعد ان نشر مجموعة « سهرة بوكر » لمسرحيين عالميين ، برزوا في هذا الجانب من الحياة الادبية على صعيد عالمي ، يقدم لنا اليوم مجموعة ثانية من هذه المسرحيات ، عنوانها «... وانسدل الستار » ، تحوي ست تمثيليات.

اليك اسماء المؤلفين الذين اختار منهم الاستاذ سمير مجموعته الجديدة : سمرست موم ، تشيخوف ،سترندبرغ، بيرنديللو، دوستويفسكي مورلي . وكلهم من اساتذة ذلك النوع الادبي ، واقطابه المرموقين .

أما اسماء المسرحيات التي اختارها فهي : الرسالة ، الخطبة ، المراة الاقوى ، واجب الطبيب ، الزوج الخالد ، ليلة الخميس .

واطرف ما في هذا الاختيار ان اكثر اولئك المؤلفين ممن برعوا في عالم القصص واشتهروا به ، فسمرست موم اشهر من ان نتحدث للقراء عنه ، ولاسيما في عالم القصة القصيرة (الاقصوصة) ، ومسرحيته « الرسالة » التي نقلها سمير في مجموعته هذه ، كان قد كتبها في الاصل قصة قصيرة، ونشرت في جملة اقاصيصه التي بلغت ثلاثة مجلدات وقد سبق لي ان ترجمتها كاقصوصة ، ولم اطلع عليها كمسرحية ، ورايت من الفروق ما وجدته شائقا وطريفا . ولا يقل تشيخوف عن موم شهرة ، هذا ان لم يفقه في اكثر النواحي القصصية ، بل ربما كان اعظم رجل عرفه هذا الفن ، وقد كتبت عنه دائرة المعارف البريطانية انه « كان يكتب القصة كما يتنفس » اشارة الى السهولة التي تظهر عنده في مراس الادب القصصي . وذلك هو شأن دوستويفسكي وبيرنديللو من حيث بعد الصيت ، ووفرة الانتاج .

غير ان سمير لم يكتف بالاسماء وشهرتها ، وحسن الاختيار ، وصحة النقل ، وسلامة الاداء ، وانما اتبع كل مسرحية نقلها بحديث قصير عن مؤلفها ، وبين للقاريء خصائصه وما يتميز به في فنه ، وروي اهم الاحداث في سيرته ، ثم وشى ذلك كله بـ : « كلمات » تحوم في معظمها حول المسرح وادبه ، كهذه الملاحظة لكابو : « الشباب يعتقدون انه لا شيء اسهل من كتابة مسرحية ، وهذا صحيح . ولكن ليس أصعب من النجاح » وهذه التوجيهات لبول كلودل : « اصغوا جيدا ، لا تسعلوا وحاولوا ان تفهموا قليلا .. ذلك بان ما لا تفهمونه هو الاجمل ، وما تجدونه طويلا هو الاكثر تشويقا ، وما لا ترونه مسليا هو الاكثر دعابة وغرابة ! » وهذه الفكر لارسطو : « ان اهم ما في التاليف المسرحي كله هو بناء الحوادث . ولست اعني حوادث الانسان ، ولكن حوادث الموضوع (الفعل) وحوادث الحياة . »

لم يبق بعد ان بينت لك مضمون هذه المجموعة من المسرحيات ، الا ان احدثك عن كل واحدة منها ، وان اشير الى كل موطن من مواطن الابداع في ترجمتها ، والى مقدرة سمير على تطويع التعبيرات العربية لاداء مواقف اجتماعية « غريبة » عن هذه البيئات والمناخات . وهنا يصبح من الافضل ان تعود الى المسرحيات نفسها وتقراها بنفسك ، فانك لا بد واجد فيها كل ما يمتعك ويروقك .. ويعود عليك باحسن الفوائد .

عبد اللطيف شرارة

يزيد بن مزيد

تاليف الدكتور عبد الجبار الجومرد

منشورات دار الطليعة، بيروت – ٣٥٢ ص.

*

لقد كنت دوما ارى الخير ، كل الخير ، في الالتفات الى هذا التراث الضخم من الاحداث الحضارية التي كن صنعتها اولئك الرجال الذين قادوا مقدرات العالم طيلة الف من السنين : بين وثبتهم الطامية الاولى من الجزيرة اللافحة الهجير ، الى دكهم الممالك والعروش ، وجوبهم الفيافي والبلاد والسهول ، فاستقطابهم العالم في امبراطورياتهم التي تالقت بالعلوم والفنون ، والاداب والصناعات ، والثروات والذخائر، والامجاد والرحلات – احداث حضارية بلغوا فيها الشاو الاعلى ، فعاشوا انسانيتهم كاملة ، شامخة قوية ، ضاجة بالخير والحياة والثمرات ، وردوا الامانة التي ائتمنوها اضعافا مضاعفة ، فبرهنوا ان الكرم الذي دارت عليه حياتهم في نشاتهم الاولى ، ظل القطب الذي انبثقت عنه مجالات سلوكهم وانتاجهم وخدماتهم في مواطنهم الجديدة .

لقد كنت دوما ارى الخير ، كل الخير ، في الالتفات الى هذا العديد الذي يكاد يمتنع حصره من الاحداث الباهرة – الجماعية والفردية – في الفتح والحرب ، والعلم والصناعة ، والفن والادب ، والقضاء والتشريع ، والعمارة والتجميل ، والتعليم والطبابة ، ودراسات الجمال والسلوك والمشاعر – احداث باهرة ، اثبتت ، بما لايقبل النقض ، اصالة اولئك الجماعات والافراد الذين كانوا ابطالها ؛ وبينته بوضوح يجلو كل شك ، ملكتهم الاستيعابية الفائقة ، وموهبتهم الخلاقة التي تثير الاعجاب .

لقد كنت دوما متاكدا من ان استهلال معالجة الازمة الضميرية التي تستشعرها جماعات الشرق الادنى والاوسط ازاء دورها من عملية الخلق الحضاري العام لا يكون الا برد الاعتبار الذاتي للامكانيات الخلاقة في الاجيال الصاعدة فيها ، وذلك بجلاء القسط الهائل من المشاركة الخلاقة الذي قام به اسلافهم في زيادة مداميك الحضارة في ماض ليس ببعيد اذا قيس بحساب الزمن الكوني .

وانا ، بين تطلعي ذلك ، وتاكدي هذا ، كان يثلج صدري ، ويثلجه كل حين ، أرى المحاولات الجدية للبحث عن هذه الفلزات المشعة في التاريخ الحضاري العربي ، وتقصّي سيرتها كاملة في المراجع والمظان المتعددة ، ثم في جلائها وتقديمها في قالب يسهل على المعاصر تقبله واستيعابه ، بعد اخضاع ذينكم البحث والتقصي لملكة النقد النزيهة ، والامانة العلمية الراسخة ، والسعي لتعليل منهجي للوقائع يراعي

المنطق وسائر العناصر المؤثرة في الموضوع .

*

من تلك المحاولات الجدية ، هذا الجهد الصادق الذي بذلـه الدكتور عبد الجبار الجومرد لجلاء شخصية «يزيد بن مزيد الشيباني» القائد الاعلى لدولة هارون الرشيد .

لا شك ان المؤلف غني عن التعريف ، فهو نائب الموصل ، ووزير خارجية ثورة ١٤ تموز في العراق ؛ وهو الى ذلك ـ بل لا فرق بين ما يدعوه الى العمل السياسي والانتاج الادبي ـ مؤلف الاثرين القيمين: « الاصمعي » و « هارون الرشيد » ؛ انه حيي التاريخ العربي ، وعاش مشاكله ومفارق الطرق فيه ، وتحسس مواطن الخطر على القومية العربية في حقبه المتعاقبة ؛ كما استوعب الادب العربي ، وتذوق رائع شعره وبليغ نثره ، فكان له من ذلك ومن علمه الغزير وماحيته النفاذة، وملكته النقدية العلمية ، والمنهجية المنطقية عنده ، وموهبة التعليل السديدة لديه ، بالاضافة الى مشاعره السامية البناءة ، وما تكنه من آمال راسخة الاسس في مستقبل زاه مشع لدنيا العرب ، ـ اقول ، لقد كان له من كل ذلك آلة احسن اصطناعها لاتحاف القراء بآثاره القيمة. ولولا رغبة في تدارك تواضعه البالغ ، وخشية من اثارة خفره الشديد، لاسهبت في سرد ما اعرف عن مزاياه ، ولكني اجتزىء بما ذكر لاجول مع القارىء في كتابه الذي اقدم له « غرة العرب : يزيد بن مزيد الشيباني » .

*

شاء المؤلف ان يجعل كتابه في ثمانية فصول ، خصص الاول منها للكلام عن « تاريخ قبيلة شيبان » ، القبيلة التي كان من افرادها «يزيد ابن مزيد » . اننا نقوم مع المؤلف في هذا الفصل باستعراض لتاريخ العرب الاقدمين ، فنطلع على ادوار جاهليتهم المتعاقبة ، وندرس نواحي حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والادبية في العصرين الاخيرين قبل ظهور الاسلام ، لننتقل بعد الى دراسة القبائل في الشعب العربي ، وتعليل نشوئها وتسلسلها ، مع دراسة تعليلية لمختلف ابرز مظاهر التكوين الاجتماعي لديها ؛ ثم نطلع على التقسيم العام للقبائل الذي شمل الجزيرة ، لنخلص منه الى الكلام عن قبيلة شيبان بالذات ، متبينين مجرى تحدرها ومستعرضين تاريخها المفصل في الجاهلية ، حيث يتاح لنا استعراض ايام العرب ، وحرب ذي قار على الخصوص ، وما كان لها من نتائج وآثار .

وتقلب صفحة التاريخ ، وتمور الجزيرة باعظم حدث وهو ظهور الاسلام ، فاذا بنا نشهد موقف القبيلة من هذا الحدث ، ونتائج مآثرها في معارك الفتح ، ونعيش حياة ملحمية رائعة مع المثنى بن حارثة الشيباني ، فنراه يفتتح المعارك لدك امبراطورية الفرس ، ويتابع مقارعته لدولة الاكاسرة ، الى ان يزلزل الطاق ويتحطم العرش ، وذلك باغلى ثمن يمكن لقائد شراء النصر به ، الا وهو الحياة ...

ونواري المثنى امه الارض ، ونستودع روحه المجيدة جنات عدن، ثم نتهيأ لمتابعة الملحمة الشيبانية في التاريخ ، حيث ننتقل الى الفصل الثاني من الكتاب ، الذي خصصه المؤلف للكلام عن « اسرة يزيد ومولده ونشأتـه » .

*

نحن الان في الربع الاخير من القرن السادس الميلادي ، نجوب مضارب شريك بن عمر الشيباني واسرته على جبل (سنام) في اليمامة، وشريك غائب في مطالب المجد ، اذ هو يشغل وظيفة رديف الملك المنذر بن ماء السماء في العراق ؛ ونتابع احداث حياة القبيلة وترعرع الابطال في ربوعها ، ومنهم الحوفزان بن شريك ، من فرسان العرب المياميين ؛ ثم نشهد بلاء شريك العجوز في حرب ذي قار ، ونراه يقطع اكمامه قبيل المعركة ، فتقطع شيبان اكمامها ، تخففا للاستشهاد ، ثم نرى الى انقضاضة النسر العتيق الى المعركة ، ونزوله عن الروح فيها ثمنا للمجد ، وجعالة للقيادة ، كما نرى الى تسابق اولاده واحفاده الى الموت ، فينكشف لنا السر عن هذه المدرسة الخلاقة للابطال ، التي هي قبيلة شيبان .

وتكر السنون ، وتشارك شيبان في جيوش الفتوح ، ثم يعروها ذلك الدافع الى النقلة ، الذي يعيش في دم كل اعرابي ، فاذا بها تنحدر الى الكوفة ، حيث تنقسم ، تبعا للقانون التطوري القبلي ، الى قسمين، يكون احدهما بنو مطر بن شريك ، الذي ينشأ عنه بنو زائدة بن مطر.

وبعد ان نعيش حياة معن بن زائدة الملحمية ، ومعاركه ضد الخوارج والعباسيين ، وانضمامه الى البلاط العباسي بعد حادثة غريبة ، نشهد دخول بطلنا « يزيد بن مزيد » الى المسرح لاول مرة .

ولا ينتقل المؤلف بنا من هذه الفترة قبل ان يبصرنا بسلسلة نسب يزيد وطفولته ، ويطلعنا على تلك الفترة من حياته التي مرت قبل بلوغه العشرين عاما ، حيث نراه يعيش تحت راية عمه معن بن زائدة ، فيصاحبه في سيره الى اليمن ، وفي زحفه على اقليم سجستان ومحاربته للخوارج والترك . حتى اذا اغتال الخوارج معن بن زائدة وهو يستحم في داره ، برز يزيد الى احتلال مكان الزعامة من القبيلة وتولي قيادتها ، ثم نال منصبه الرسمي الاول بتوليه اقليم سجستان. ولكن خلافه مع ولي العهد، يجعل المنصور يغضب عليه ويستدعيه الى بغداد، حيث يأمر بسجنه ويطلق سراحه فيما بعد .

*

وهنا ينقلنا المؤلف الى بلاط بني العباس ، فيقدم لنا لفصله الثالث بدراسة للقوى المتصارعة فيه ، العربية والفارسية ؛ ثم يزيح الستار عن خفايا اعظم تسلل فارسي الى الدولة العربية ، عنينا به أسرة الوزراء البرمكيين . ولا يفوت المؤلف هنا ان يتطرق الى ابحاث عامة ، فيرسم لنا صورة واضحة عن تكوين الجيوش في الدولة ، واختلافها من نظامية دائمة ومستنفرة قبلية ، مبينا مركز يزيد بن مزيد بين قواد هذه الجيوش جميعا .

وتبدأ حياة يزيد كرجل ذي خطر تعتمد عليه الدولة في الملمات ؛ فاعداؤها الخوارج يدبرون مؤامرة لاغتياله على احد جسور بغداد ، ولكنه ينجو منها بفضل شجاعته وبطولته ، والخليفة ينتدبه لاخماد ثورة في خراسان ، فاذا به يناجز زعيمها (البرم) ويأسره بنفسه ؛ وتتوالى الاحداث ، ويقوم المؤلف بتقديم اللوحات عن الاحداث الحربية في ذلك العهد ، مبينا التيارات الخفية التي كانت تسيرها وتصاحبها ، فاذا نحن نصاحب حملتين على بلاد الروم، اولاهما تسيطر عليها التيارات الفارسية ، وثانيتهما عربية ، يتولى قيادتها يزيد بن مزيد ويعقد لواؤها لولي العهد هارون ، نشهد خلالها احداثا جساما تصور تغلب الجيش العربي على جيوش الروم في آسيا الصغرى ، وضيق القسطنطينية بحصار الجيش العربي لها ، وردها له بدفع الجزية ، مما يشهد ببراعة يزيد في القيادة ويبين مدى شجاعته واخلاصه في خدمة الدولة .

*

اما الفصل الرابع من مؤلفنا فيخصصه الكاتب للكلام عن شخصية يزيد النادرة ؛ انه يرسم لنا لوحة بارعة عن صورته ومظهره ، ويعقد لنا فصلا ممتعا عن اعرابيته وفتوته ، ثم ينتقل الى مدح الشعراء له، ومواقفه من مادحيه وهجاته ، ثم يبين لنا مبلغ نقده للشعر وتذوقه له، لينهي الفصل بالكلام عن دينه وقوميته ، حيث اتاح له ذلك الكلام عن الشعوبية واصولها ، ثم تحولها الى صراع سياسي بين القوميتين الفارسية والعربية .

*

ونقرب في الفصل الخامس من بؤرة الحوادث ، ونرى تسلسل الاحداث في خلقها اللازمة ؛ فالمهدي يهمل سياسة التوازن في بلاطه بين العرب والفرس ، والبرامكة يستغلون صداقتهم له وللخيزران ، ووشائج قرباهم من العائلة المالكة ، لتقوية وبسط سيطرة التيار الفارسي على الدولة . ويظهر تفانيهم في ذلك في معركة ولاية العهد بين الهادي والرشيد ، حيث نراهم يسعون لاخذ ولاية العهد للرشيد من بعد اخيه الهادي بادىء ذي بدء ، ثم يحاولون تقديمه عليه بعد ذلك.

ويتابع يزيد كل ذلك عن كثب فيرى فيه الخطر الكامن على عروبة

الدولة ، فيناصر الهادي ضد البرامكة ، ولكن يحدث ما يجعله يغيب عن مسرح الحوادث . اذ تنشب ثورة في جرجان وطبرستان فيكلف المهدي ابنه الهادي بالتوجه لقمعها ، ومعه جيش يقوده يزيد . ويخرج الهادي من بغداد والنقمة تملأ جوانحه على امه وابيه . وتأتي الحوادث مصدقة لظنونه فيهما ومبررة لنقمته عليهما ، فالمهدي يوافق على تقديم الرشيد في ولاية العهد على اخيه ، ويخرج الى جرجان لاقناع الهادي بتقبل ذلك ، ولكنه يموت مسموما في الطريق .

وهنا لا يقر البرامكة بالفشل ، بل يتابعون مكائدهم فيتقربون للهادي ، ويرعون الرشيد ، وينهد الحزب العربي في محاولة لانقاذ الدولة من البرامكة ومن النفوذ الفارسي ؛ وتسير شائعات بوجوب قتل يحيى البرمكي ، ولكن الهادي يقضي ليلة ويتبوأ الرشيد كرسي الخلافة فيكل الى يحيى امور الحكم ومقاليده .

*

ويطالعنا الفصل السادس فاذا بالمؤلف يبسط لنا تحريات تاريخية دقيقة ، يكشف لنا الستار فيها عن الصراع بين اسرة البرامكة والتيار العربي في الدولة ، الذي كان يمثله الفضل بن الربيع وعلي بن عيسى ومحمد بن فروخ ويزيد ، حيث نرى الى محاولات البرامكة لالقاء يزيد في التهلكة . ثم نشهد السياسة الماكرة التي اتبعها البرامكة لاشعار الرشيد بحاجته اليهم وذلك بخلق الانتفاضات عليه في كل جانب من جوانب المملكة ؛ الى ان تنتقل زعامة الاسرة البرمكية من يحيى الى ابنه جعفر ، الذي يشتد في سياسة محاصرة الرشيد ، فيعمل اثناء تولية اخيه الفضل على خراسان على تشكيل جيش فارسي هناك ، قوامه خمسمائة الف جندي ، يكون ولاؤه لآل برمك .

وهنا يقدم لنا المؤلف ملحمة « الوليد بن طريف الشاري » ، وهو الخارجي من ربيعة ، الذي احتل ارمينية واخضع الموصل واذربيجان، ثم انحدر الى الرقة وبات يهدد بغداد نفسها .

لماذا تهاون البرامكة في المبادرة للقضاء على هذا الخطر الذي بات يهدد الامبراطورية ؟.. ليس لذلك سوى تعليل واحد .. هو اشعار الرشيد بتوقف دوام ملكه على حمايتهم ؛ بل لعل الامر كان يعدو ذلك! لعلهم كانوا يرمون الى الافساح للوليد للقضاء على الدولة العربية في بغداد ليقوموا هم بجيشهم من خراسان ، بعد ذلك ، بالقضاء على الوليد واعادة امبراطورية فارسية يكونون هم فيها الاسرة المالكة .

وانفجرت الحقيقة الهائلة لعيني الرشيد ، ومارت ثورة جامحة في نفسه ضد البرامكة ، ولكنه اسرها في نفسه ؛ وكان تحول مكتوم في نفسه ادى السير فيه الى المد بحياة الامبراطورية العربية اربعمائة سنة اخرى .

وهنا يبرز دور « يزيد بن مزيد » في الحفاظ على كيان الدولة ، فيقوم على رأس جيش جرار للقضاء على الوليد الخارجي . ونشهد ابرز صراع حربي ونفسي تعرض له القائد الاعلى لدولة هارون الرشيد. لقد كان الوليد بن طريف على رأس قبائل ربيعة ، وهي ابناء عمومة يزيد وافراد جيشه ؛ وكانت الحرب تعني فناء القبيلة الواحدة بتقتيل افرادها بعضهم لبعض ؛ ولم ير يزيد حلا لذلك غير المخاطرة بنفسه . ونازل الوليد منفردا ، على ما بينهما من فارق في السن ، ولكن الخبرة والقوة والايمان انتصرت على الفتوة والشباب ، وقتل الوليد في المبارزة .

ونقترب من المعركة الفاصلة بين النفوذ الفارسي والعربي ؛ فالبرامكة ، وقد شعروا بتغير دخيلة نفس الرشيد حيالهم ، يعمدون الى العمل الجدي لتنفيذ مآربهم ، اذ يعود الفضل بن يحيى من خراسان بعشرين الفا من الجيش الذي الفه هناك ، ويجعل الفا منهم لحراسة الرشيد ، او لسد المنافذ عليه بالاحرى . ولكن الرشيد يترك بغداد نهائيا الى الرقة ، ومعه يزيد قائد جيوشه ، حيث يعمد في اجراءات متتالية الى الحد من نفوذ البرامكة .

*

ويقف المؤلف الفصل السابع للكلام عن يزيد وهو في قمة المجد ، فيصفه في بلاط الرشيد ، ويحدثنا عن مقامه بين حاشية الخليفة وعن تقديرهم له ، ثم يبين لنا اشتداد اواصر المودة والاعجاب بينه وبين الخليفة ، واعتماد هذا له في صراعه الخفي والظاهر ضد البرامكة ، الى ان يجعلنا نشهد حربه الهائلة ضد خاقان الخزر ، الذي كان يهدد الامبراطورية العربية بغزو ماحق ، وانتصاره عليه الانتصار الباهر الذي خلف له شهرة عمت الخافقين ، وكانت له خير سموان في انتصاراته اللاحقة التي تمت له على الخوارج والثائرين في خراسان والموصل ووادي الرس .

ويعود يزيد الى الرقة ، فاذا بهارون الرشيد ، وقد تهيأ لانزال الضربة القاضية بالبرامكة ، يعهد الى توليته اقاليم ارمينية واذربيجان وران ، في حركة تحصين وقائي ، فينزل هناك في مدينة برذعة، ويجري اصلاحات جمة ، ويفكر في العمل للسلم ، كما فكر طيلة حياته في العمل للحرب ، ولكن ...

لقد ابى القدر ، الا ان يجمع بين يزيد وخالد في كل شيء : جمع بينهما في نشأتهما ، وفتوتهما ، واعرابيتهما ، وقضاء حياتهما في الحروب ، وانتصارهما في المعارك التي خاضاها ، وملئهما الخافقين بصيت متضوع مجيد ، ثم ها هو الان يجمع بينهما في الميتة التي انهى بها يزيد حياته المجيدة ، اذ به يموت حتف انفه في منزله ببرذعة .

ويقف المؤلف عند هذا سير التاريخ ليفتح باب الادب ، ويتحفنا بالمراثي التي قيلت في يزيد ، ويفيض في شرحها والتعليق عليها ، فاذا لنا من كل ذلك ندوة ادبية كلها روعة وكلها سحر .

ويظل كاتبنا امينا على متابعتنا للحمة شيبان ، فيعرض علينا سيرة اسد بن يزيد ، ويرينا كيف كان نسخة طبق الاصل عن ابيه في كل شيء : في قامته ومظهره واخلاقه وطباعه ، وفي ضربة سيف كانت ترصع جبينه ، ثم في ما نذر نفسه له من العيش طيلة حياته للقضية القومية التي افنى ابوه فيها بيض ايامه ...

ولا ينتهي هذا الفصل حتى نشهد الخطوة الحاسمة للرشيد في التخلص من البرامكة ، من قتل جعفر بن يحيى واعادة السلطان الى ثوبه العربي القشيب ، واغماضة عين الرشيد على الدنيا في طوس بعد ان عقد البيعة لولديه الامين فالمامون .

*

وهنا نأتي الى الخاتمة التي تؤلف الفصل الثامن والاخير من الكتاب، التي يخصصها المؤلف للكلام على اسرة يزيد واولاده الثلاثة : اسد ومحمد وخالد ، وما قام به كل منهم من ادوار القيادة بعد ابيه ، مما يتيح لنا استعراض معركة الخلافة بين الامين والمامون ، ثم متابعة خالد من بينهم على الخصوص في معارك النضال التي تجددت في خلافة المعتصم بين قوى العسكر العربي وقوى العسكر المقاوم له ، حيث نودع اخر صفحات الكتاب مع اخر سيف من شيبان ينتضى للدفاع عن القومية العربية وسيادتها .

وكأني بالمؤلف ، وقد أوفى من تقديم القصة الرائعة لحياة هذا البطل العربي الفذ على النهاية ، يأبى الا ان يزيدنا من فضله ، فاذا به يتحفنا بكراس من « الاخبار والطرائف » التي تدور حول حياة « يزيد بن مزيد » : فيها النادرة والطرفة ، والبيتان من الشعر والقصيدة، مما لم ير مجالا لتضمينه بحثه العلمي الكامل، واحب اتحافنا به لما فيه من فائدة ومتعة . ثم يضيف فيورد ثبتا بمصادر الكتاب حوى ثمانين من المراجع الهامة ، اتبعه بفهرس للاعلام ، واخر للشعوب والقبائل والطوائف ، وثالث للاشعار الواردة في الكتاب ، ورابع للاماكن والبلدان ، ويختم ذلك « بمحتويات الكتاب » وهو فصل يلخص فيه فصول الكتاب ومواضيعه اضفى تلخيص وأوفاه ، ينهيه بخارطة دقيقة كاملة للملكة الاسلامية في اوسع حدودها وممالكها .

*

وبعد ،

فالكتاب ملحمة الفروسية العربية ، تستعرض لوحاتها قبيلة

شيبان ، اعرق قبيلة امتطت النوق الحمر والمهيرات الجياد ، ولوحت الصفاح والرماح .

انه بعث لايام العرب الغر : نحيا بوقائعها وابطالها ، وتظهر ما عمر ساحها من بطولات وتضحيات واستشهاد ، فينطق ماض اغر ، احتل شوامخ التاريخ .

إنه معارك الانطلاق في حنايا ذي قار ، وشعاب طوروس ، واسوار القسطنطينية ، وقمم طبرستان ، وتخوم الخزر : تقلب صفحات التاريخ ، وتديل الامبرطوريات ، لترفع راية العرب خفاقة فوق العالم القديم .

ان ترجمة « يزيد بن مزيد » ، القائد الاعلى لدولة هارون الرشيد، وعمه « معن بن زائدة » ، فارس العرب واحد اجوادهم : يستقطبان في فتوتهما الرائعة حوادث تفجر القرى العربية المخزونة ، في سبيل بناء عالم جديد .

هو كتاب جامع ، حوى السير والحوادث ، والتاريخ والعبر ، والانساب والايام ، وروائع المناسبات ، في تعليل منهجي للحوادث غير مسبوق اليه .

انه سلسلة المعارك ، الظاهرة والخفية ، التي خاضتها القومية العربية ضد اعدائها من الشعوبيين والخوارج وقبائل الهمج ، بعد الفرس والروم.

وان كان لنا من كلمة نختم بها التقديم لهذا الاثر القيم ، فاننا نقول : لقد كان جلاء لفترة من التاريخ حبيبة الى قلوبنا، كفيلة باثارة الحماسة فينا ، واشاعة الاطمئنان لدينا بخصبنا ، كان تصويرا أمينا دقيقا ، وعرضا جذابا واضحا ، نبا عن العرض المتحفي الجامد المحنط، ليكون ضاجا وواقعيا ، يأسرنا بحيويته وصدقه فنتابعه بلذة وشوق ومتعة ، راجين المؤلف مداومة اتحافنا بحلقات مقبلة من سلسلة هذه الترجمات المفيدة المستفيضة .

زهير فتح الله

(ايام معه) (وليلة واحدة)

منشورات المكتب التجاري ـ بيروت

*

ليست مؤلفة هذين الكتابين باول فتاة مسيحية شامية حرفت اسمها او اضافت عليه تحلية أعجمية ، او ترجمته الى الفرنسية . فلا غرابة ان صار اسم خولة ، هذا الاسم العربي الحبيب « كوليت » فكم من اسماء عربية اضيف اليها تحليات كاسم مريم الذي صار ماري ، ثم تحلى بالاضافة فصار ماري لويز ثم بالورد فصار ماري روز ثم ترجم اسم وردة الى روزيت ، ونور الى كلير وهكذا ، واذا كان الاسم يدل على المسمى فكان الاليق بالمؤلفة وهي عربية دمشقية اموية ، الابقاء على الاسم الاصيل تيمما بسيدة من اشهر سيدات العرب عرفت بالحصافة ورجاحة العقل والنخوة والمروءة ، اما اسم كوليت فترجمته العربية بنيقة، اي ياقة وتصغيرها كوليت اي بنيقة ، وما هذا الاسم المصغر الذي لا معنى له ولا جرس بلائق بفتاة عرفت نفسها منذ تفتح برعومها وعرفها الناس شاعرة تنظم القوافي باللغة الفرنسية كما تجيد التعبير عن احاسيسها بلغة ابيها رجل الحقوق والقوانين وجدها العظيم معلم الادب والسياسة والاجتماع واستاذ الزعماء ، ومربي الجيل السوري.

*

سمعت باسم كوليت سهيل الخوري وكاني سمعت باسم « العيدي» قبل ان اراه وراح الرواة ينقلون عن الرواة افات ما سمعوا من موضوع كتاب « ايام معه » لم يقراه لا هؤلاء الرواة ولا اولئك النقلة ، واخذوا يتباعدون تباعد المتوضيء من اقتراب الدنس قبل الصلاة ، ينفون عن نفوسهم قراءة المحرمات والولوغ في الاثر .

لا رغبة في الاطلاع على اعترافات الفتيات المراهقات ، ولا تشوقا الى سماع ترانيم الشهوة واجترار اللذة التي ينعم المحروم منها بسماع الحديث عنها ، ولا استحثاثا للرغبة المرغوب فيها ، بل حبا في الاطلاع على مدى وعي المراة العربية في النصف الثاني من القرن العشرين ،ومبلغ ما وصلت اليه قدرتها على اقتحام ميدان الحياة ومنافسة الرجل ، ومعرفة ماهو نوع سلاحها في عصرنا العجول ، الوثاب ، وكيفية نظرتها الى المجتمع المتحول الصاعد .

على هذا الاساس من العزم تأبطت « ايام معه » لا رفيق لي سواه الا نارجيلة تخدر اعصابي أنسادها كلما ضج بي الفرح مما اقرأ ، وأنعم بالسرور من البيان الواضح والوصف البارع ، والصور الاخاذة ، والاسلوب السلس ، والتشويق الجذاب والصدق في الرواية .

هل كانت حالتي النفسية الهانئة هي التي تدفعني الى التهام فصول الكتاب ؟؟ ام « الفردوس » الذي انا فيه وأمامي بحيرته الواسعة ذات النوافير الخمس تقذف الامواه الى فوق فترتد متكسرة كانها ذوب البلور النقي تنقر اوتار موسيقى عذبة التوقيع ساحرة الانغام ؟؟ ام تمايل قامات « الحور » مع هبوب الريح وهمسات اوراقها الناعمة في هذا الوادي الاخضر وادي دمشق الفيحاء ؟ ام ختام كل فصل من فصول الكتاب وكأنها ختام قصيدة عصماء من نظم شاعر موهوب ؟؟

قد يكون كل هذا ، وقد لا ابتعد عن الحقيقة اذا قلت اني ذهلت عن كل ماهو حولي من بدائع الطبيعة من مياه واشجار وانا اتابع القراءة بنهم ولذة وشوق ..

أتممت قراءة كتاب « ايام معه » الذي لا هو قصة ولا رواية ، بل هو كتاب «اعتراف» ذاتي كتبته خولةسهيل الخوريوصفتبه اولىرحلاتها الخاصة ، الرحلة الطويلة القصيرة ، الشاقة المريحة ، السعيدة الشقية، الهوجاء المتانية الباكية الضاحكة ، التي دفعتها اليها شبوب الغريزة مبكرا قبيل النضوج .

اقول دفعت اليها ، لان الاندفاع الجنوني المبكر نتيجة حتمية لتيارات عاصفة قل من الناس من لم تجرفه لتلقيه في هاوية ليس في الوجود الواقعي ماهو الطف منها ، ولا في الحس الذاتي ماهو الذ منها ، ولا في الشعور ماهو قريب منها ناهيك بالشعور المرهف والحس الدقيق.

ولما كانت السيد كوليت مفطورة على ابداع الشعر ، والشعر في سموه السامي وعلوه العالي لا يتضع ولا يتواضع الى الاسهاب في وصف لمسات الشعور ، ولا التبسط في شرح صور الحس الا بـ « كلمة » ملهمة.

ولما كانت اعاصير شعورها المبكر قوية ولغورة غريزتها غليان ، وكان سيل اندفاعها عرما جارفا ، استطاعت بقدرة فنية بارعة ، تحويل هذه الظاهرة الطارئة المجنونة الى اندفاع شاعري مطرب ، وترانيم وانغام مشجية مفرحة تمثلت فيها خلجات نفسها ، وهمسات شعورها ، ونأمات حسها « بكلمات » لاتصدر الا عن روح شاعري أصيل .

ولما كان تيار السيل الجارف المجنون ، تيار المراهقة ، لا يبالي اعلى السهل يسيل ام على الوعر ، اقدير يتجمع ام يفيض ، ام شلال يندفق وينحدر هكذا راحت الكاتبة تتخبط لا تخبط الارعن الملتاف ، بل تراقص النشوان الطروب .. الطروب بكل ماتراه العين بعين الحبيب .. الحبيب الذي يفرح النفس ويسر الروح ، ويسعد الجسد ، ويروي الغاية الثانية عن معنى الوجود بعد اشباع المعدة . هكذا راحت تطلق نوازعها ، تستصرخ كوامن غرائزها تواقة الى اثبات وجودها كامرأة ناضجة تحن الى حنان الامومة .

*

اشخاص كتاب « ايام معه » ثلاثة ، اقول اشخاص لا ابطال ، الاول منهم أصم والثاني ابكم اما البطل الوحيد فهو الشيطانة الرجيمة صاحبة هذا الاعتراف الاحمر عديمة الحياء ، التي قولت فيها مالا يقال، ومثلت تمثيلا واقعيا لا يمثل على مشهد من الناس ، وانطقت الشيء

الذي لا ينطق ، والذي يعمل دون ان يتصور الذهن كيف يعمل ، ان ظفرة هذه الشيطانة الصغيرة ، وجراتها على تسمية الاشياء باسمائها دون ماحياء او تحرج هي التي تدعوني الى نعتها بالرجيمة ، في حين ان قال لي من يعرفها انها طيبة القلب ، سليمة الطوية ، بسيطة غير ساذجة ولعل هذه الصفات هي التي تؤكد لي انها شيطان ملعون .

اما الشخص الابكم فهو الحبيب المحظوظ ... كهل في الاربعين من عمره ، فنان موسيقى يصور شعور الانسان بالانغام ويدغدغ الاحاسيس بالاوتار ، بهي الطلعة كما تراه الحبيبة ، زير نساء فحل كما يصوره قلمها ، لا يحفل بالحب ولا بالوفاء ولكنه صناع ماهر يعطي فيرضي فيروي لا جودا ولا كرما .

ليس بدعا ميل الشاعر الى الفنان ، ولا انعطاف الفنان على الشاعر بصرف النظر عن فارق العمر بين الحبيبين ، ولا بالمستغرب اتصال فتاة مغامرة ، متحررة الفكر ، تنقصها خبرة الحياة ، ملتهبة الشهوة ، مندفعة مع تيار المراهقة الجارف ... اقول ان اتصالها بهذا الكهل المتزن امر طبيعي يوازن طيشها المبكر ، ناهيك بانه حظي اي « جيجولو » لايعني بقطف الثمرة الناضجة ، ولا يلمسها باطراف انامله ليأكلها ، لانها تقدم له دائما على طبق من الفضة .. تلتقطها اطراف اصابع تلك المسكينة المتيمة المدلهة لتضعها في فم الحظي التياه وهي تنتظر التقاط النواة حين يمجها لتمصها هي وقد تعطرت .. بالابتلال بريق هذا الحبيب الفاتن .. هل من عجب اذا تندفع تلك الفتاة المغرورة ثائرة الروح التي لاتعرف السلام تسعى الى حيازة ذلك الحظي ، ووقفه عليها وحدها دون سائر النساء فتكون المفضلة عليهن جميعا .. وبذلك ترضى كبرياء انوثتها وتطرب في نفسها مركب التفوق لا مركب النقص .

اما الشخص الاخرس فلا ادري كيف اقحمته الظروف في هذه الدوامة التي اقلقت الاسرة ، اسرة الفتاة المراهقة ، واثارت اشمئزاز اهلها منها لخروجها على اللياقة وتمردها على العرف . ولكن عرفنا ان هذا الشاب من ابناء الغرب ، يحب الفتاة يريد الاقتران بها متى اتم دروسه في جامعة من جامعات اسبانيا ونال اجازتها . ونعرف ان الفتاة غير معنية به ولا تريد الزواج منه ، وهي في ذات الوقت تريد الاحتفاظ به كستار وتغشية امام الناس لانها في حقيقتها راغبة من صميم جوارحها في الفناء بين ذراعي حظيها المحظوظ حبيبها المفضل .

وان هذا الابكم المسكين « شرابة خرج » يقال تعمية انه خطيبها سوف يكون قرينها .

هي ذي صورة مصغرة لاشخاص القصة التي لا يتحرك فيها سوى البطلة وحدها اما الاخران فمفتاح حركتهما بيد « كوليت خانم» كما ينادونها بدمشق تحركه متى شاءت فيتحركان اليا .

*

لكل بداية نهاية ، ونهاية الحب الطائش كامر الفطر والان وقد عرفنا بداية اعتراف « ريم » كوليت بطلة القصة مع عشيقها « زياد » فصار علينا ان نعرف نهايتها .

قلنا ان العاشق الطائش في التاسعة عشرة من عمرها وشاعرة ، موهوبة ، والعاشق في الاربعين وفنان موسيقي بارع ، وان الشاعرية والفن لا يقيمان وزنا للتقديرات الزمنية القائمة على قاعدة حساب الايام والاسابيع والشهور والسنين .

وان الكهولة المتزنة تكمل الطياشة المبكرة وتضعها في موضعها الصحيح .

ولا ننسى ان نقول ان الارهاق الجثماني بوهن همة الشباب ويحملها على الفتور فكيف لا يحطم قوة الكهل ويحملها على التقصير والعجز ، ونرى ان البطل المغوار ، الحظي زير النساء صار فيلسوفا يدعو عشيقته الى فهم معنى الحب ، وان تعريفها له انه « عاطفة طارئة» تعريف غير صحيح ، انما تعريفه الحق « عقل وعمق » .

ونلاحظ ان كلا العاشقين اخذ يفلسف موقفه وبروز مسؤوليته ، ومعنى ذلك اشتباك العاطفة بالعقل والتحام الذاتية في معركة بداية النهاية .

بالله ما احلى المغالطة ... مغالطة النظام الطبيعي ... مغالطة الزمن المغالطة في العمر استرجاعا للشباب .

ان ابن العشرين لا يفهم معنى حياة من هو في سن الثلاثين او الاربعين ، وابن الاربعين وهو في اوج الحياة لايرضى ان ينحدر درجة واحدة الى الجانب اليساري ، يريد البقاء في ذروة الاربعين ولو غالط النظام الطبيعي للانسان .

ليست العبرة في الاقناع الذاتي ، بل في اقناع الطرف الاخر بان الاوهام والخيالات والتصورات هي مادة ملموسة محسوسة وهيهات .

*

فسمت قشة الاجهاد ظهر الفرس .. سلكت طلائع النهاية سبيلها الى شعور بـ « ريم » والى حسها ايضا ... وان ذلك الرجل الذي كانت تذوب نفسها وتفنى في عينيه قد صار الى هوان بسبب تقصيره وعجزه ؟

مقارنة بسيطة بين الماضي والحاضر وموازنة اكثر بساطة بين الحاضر والمستقبل اثبتت « لريم » الحقيقة السافرة ، وقد ادركت بذكائها الوهاج وحسها النسائي ان سبيلها الى قتل حبها هو سلاح حبيبها وان هذا الحب الذي صدر الحكم باعدامه لايذبح بالحديد بل بالفلسفة المنطقية .

اليس الحبيب هو القائل ان الحب عقل وعمق ؟؟

لقد ابلت « ريم » من جنون حبها الطاريء ومس حب « العاطفة الطارئة » زياد » فجن .

واخيرا انتصرت المراهقة على جنون ريم ، على رغبتها المجنونة في الامومة ، وتيقظ شر الغدر الدفين في قرارة المراة ، وكشر كبرياؤها عن انيابه لينتقم من الحظي زير النساء والذي طالما اذل النساء اليس زياد هو القائل لها انها احسن من عرف من النساء ، وهل معنى ذلك ان النساء يمتزن بالحسن فقط وان لا قيمة البتة لروح المراة وعقلها ووجدانها ؟

صفر « زياد » في عيني « ريم » فقالت : صحيفة « »

زحفت نظراتي ببط وبرود ... تسلقت قامته المديدة وتوقفت غريبة عند ثغره ... ثم راحت تنبش في عينيه .. وتبحث فيهما عن شيء ... عن اي شيء .. عن اثر من احساساتي الماضية ... ولكن عبثا هذه العيون التي كانت تشع ، وتوحي الي بالوف المعاني تبدو فارغة .

« وهذه الشفاه التي كانت تصب الحياة في وجهي وفي مقلتي .. تبدو متدلية ... تدل على السذاجة .

« هذا الرجل المنتصب امامي .. طالما وددت ان اتلاشى في ظله .. طالما تمنيت ان اضمحل بين ذراعيه .. يبدو مترهلا .. عاديا ..

« اني انظر اليه وكاني اراه لاول مرة ايمكن ان لا اشعر نحوه بشيء ؟؟ ايمكن ان يهدىء الحب المضطرم في مدى لحظة ؟؟؟ « أهكذا تخمد النار الاكلة في ثوان ؟؟؟ انا الان لم اعد احبه » ؟؟

*

عادت « ريم » الشيطانة الى الفراغ « الفراغ الذي كانت تخافه وتستثقله وقد صار لها مصدر اطمئنان وسكون . »

وارتد الحظي على عقبيه لا يريد ان يشعر بالنازلة التي نزلت به وقد هيات « كوليت » لنفسها رحلة الى اوروبا تفتش عن زاد روحي جديد يكون موضوعا لاعتراف جديد مع زياد جديد فحل .

ونطق البطل الابكم كفرا بعد طول صمت وموات حس قال لخطيبته « ريم » .

انا لاتهمني القصص ولا جميع القصص التي قد تجري معك ، ولن احاسبك على ماضيك على سنين قضيتها وانا بعيد عنك ، انا لن اطلب منك اخلاصا اذا كنت لن ابادلك انا هذا الاخلاص ، انت انسانة لك حق في الحياة مثلي تماما ، ولست سخيفا اطلب ان اتملك حتى ماضيك ... رغبتي ان تكوني زوجتي .

لقد تحررت الشيطانة من غلمتها او انها كتمتها برماد من التريث والتاني ، لقد تحررت « كوليت » من حظيها الاسر وقد كان شبقا

يعطي بسخاء ، ويرضي من غير من ، ويروي العطشة وقد تحول المسكين الى شيء .. شيء هين لا قيمة له ولا قدر ، وكاني بهوس الضمير ، ضمير الشيطان قد تيقظ بعدان عرف بعض الخير وكل الشر فاتجه صوب الدير ينذر الرهبنة ، هكذا يقول المثل الانجليزي عن الشيطان متى تجاوز الاربعين من عمره ، وهكذا همس ابليس في اذن « كوليت » ينذرها بمصير عشيقها وقد انحدر الى الخمسين او الستين .

وبقي لها ، او هي استبقت « شرابة الخرج » خطيبها الى حين ، هذا الخطيب الذي عرفنا منه ان لا شأن له البتة بماضي خطيبته وحاضرها ، وانه ليس سخيفا يحاسبها على ماتفعل وعلى قول الناس فيها واقاويلهم عنها .

هنا يحق لنا ان نسأل هل تم اعتراف كوليت بانتهائها من قراءة الاربعماية وعشر صفحات من كتابها ايام معه ؟؟ فنجيب ان للكتاب شقيقا جديدا تجسد في مولود جديد اسمه « ليلة واحدة » .

عرفنا ان الكتاب البكر اعتراف ذاتي بحت ، اعتراف كوليت سهيل خوري ، الخاص وان السنة الناس لاكت هذا الموضوع قبل ان يتكون من حروف ويتجسد في كتاب يقراه لناس .

وان الحكاية لن تنتهي بانصراف ابطالها كل واحد في طريق ، لان جديدا قد جد في حياة السيدة كوليت ، وقد تزوجت ، وان زواجها دام احدى عشرة سنة في العقم ، ولكن من هو العقيم هي ام زوجها . وتقول في كتابها « ليلة واحدة » ان عزمها وعزم زوجها قد صح على السفر الى باريس لعرض الزوجة على طبيب اخصائي .

وتقول ان اعمالا تجارية ضرورية اضطرت زوجها الى التخلف في مرسيليا وقد تركها تسافر وحدها في القطار الى باريس واعدا اياها باللحاق بها في اليوم التالي وتقول « كوليت » ما معناه « لمحت عيناها وهي في عربة سكة الحديد رجلا في نحو الخامسة والثلاثين كامل النضج فياض الجاذبية تستكن في عينيه نظرات الحنان والحزن والتوسل ... وتجهر بان شعورها اضطربت استجابة لنداء الجنس . فاقتربت منه وان حديث هذا الرجل الباريسي العذب الانيق قد سحرها ... وان جوانحها قد تفتحت لقصة حياته الخاصة وهي حكاية رومانتيكية مشرقة مشوقة جذابة مؤثرة وتقول ان كرم الرجل بهرها في باريس وقد بلغاها قرب نصف الليل ينتقل بها من مطعم الى مقصف الى علب ليلية راقصة ماجنة ، وقد اسكرها عطفه وحنانه ونظراته المضطربة بالشوق . وقد ازداد وجدها وهجا بفعل الشراب .

وتعترف بانها استقرت معه بعد المطاف والانتقال من مقصف الى اخر في غرفة في نزل من هاتيك النزل التي يعرفها الباريسي « القارح» المخصصة لمثل هذه الزيارات الخاطفة تحت جنح الليل .

وكانت ليلة او بضع دقائق من ليلة مقدماتها بوهيمية حمراء يعجز قلم الرجل عن وصفها احتشاما ، لا لان الحديث الجنسي يفعل ولا يقال، بل لانصراف الذكر بوافر حيويته الى اغصاب الانثى المتهيئة ونفخها اكسير الحياة لبقاء النوع .

ولان الانثى في هذاالحال تكون متفتحة الجوارح ، يقظة الوجدان، متنبهة الذهن ، مرهفة الشعور ، نشوى الاحاسيس الذاتية . وهل المراة بمجملها سوى احاسيس ذاتية ؟؟

اما « كوليت سهيل خوري » الشاعرة فقد وصفت فاجادت الاجادة المطلقة في وصف كل شيء ... كل شيء ، وضاعة الغرفة ، قبلة الاستعطاف ، نضو المعطف ، ضم الخصر تلوي الجسم ثم آنات السرير تحت وطء جسدين ملتحمين ، ثم تنهدات وشهقات وانسكاب دموع ، وصفا نسائيا شاعرا خاليا من حشمة الانسان مجسدا تجسيدا بالغا حيوانية الانسان التي تبذ كل حيوان .

*

يلخص كتاب « كوليت » الاول « ايام معه » بكلمات ثلاث مراهقة فاهدار عفة والكتاب الثاني بكلمتين اثنتين « خيانة زوجية » .

لم يخل الكتابان من سقطات لا ادري كيف تعثرت فسقطت فيها كوليت سهيل خوري ، وهي النبيهة اليقظة ، المالكة لناصية التصوير البارع ، والمسيحية التي تعيش في وسط اجتماعي متحرر من قيود الاختلاط ، كيف عرفت خطيبها « سليم » متقطعا وقد صار بعلها الشرعي ، كيف نظرت اليه حين جاء يطلب يدها من والدها من شق باب الصالون او من مفتاح الباب . رات مرة يده ومرة اخرى رأسه وحذاءه ...

قد ينطبق هذا الوصف الخاطيء على البعض القليل من الاسر الاسلامية المحافظة بعض الانطباق ، ولا ينطبق من قريب او بعيد على الاسر المسيحية بكافة طبقاتها .

هذا مثال استشف منه دليلا على ان السيدة كوليت غريبة عن الاوساط الدمشقية ، غريبة في تفردها في تفكيرها ، غريبة في انحرافها وتصرفاتها ، غريبة في تسويغ توقفها الشاذ ، غريبة في اتهام الرجل بجهل المراة .

ثم سقطة ثانية اشد من الاولى تقول السيدة :

« وانطلقت الى الشارع تائهة اسائل صقيع فجر باريس عن طريقي الى فندقي » .

ولا ننسى انها امت غرفة الخيانة قبيل الفجر اي انها مكثت فيها برهة قليلة من الزمن ريثما نزا الفحل ، وهرعت الى فندقها عند الفجر. وتقول ايضا « مزق هدوء غرفتي فجاة زعيق الهاتف ... انفرجت الانامل لا شعوريا تحاول اخفاء اخر صفحة من رسالتي المبعثرة ... يذكرها المتحدث بالهاتف بالموعد مع الطبيب في الساعة التاسعة » .

يفهم من قولها هذا انها ودعت طريدها عند الفجر وانطلقت الى فندقها تكتب رسالة الى زوجها تعترف بخيانتها له ، وتسوغ هذه الخيانة بقولها « ان خيانة الروح اشد من خيانة الجسد » وهنا يحق لنا ان نتساءل هل من الممكن كتابة ٢٣٥ صفحة في اربع او خمس ساعات ؟ اظن ان المستحيل هو هذا .

ثم تقول ... « البارحة لاول مرة في حياتي كنت صادقة مع نفسي » اي انها عرفت المتعة التامة بارواء الجسد ، ونتساءل مرة ثانية كيف تكون المتعة كاملة والارتواء تاما ولا يعقبهما على التو ارتماء على الفراش واستغراق في نوم عميق يسهل انسياب هرمونات الحياة وامتصاص الجسد لها ، وهو حالة طبيعية تكيفها الطبيعة وتعدها ليستعد الجسد لمعركة بشرية تالية ، وكيف عاكست المؤلفة نظام الطبيعة في الجسد المرتوي فلم تتم بل نجد العكس نجد تنبه اعصابها، ويقظة ذهنها ، واندفاعها تكتب ٢٣٥ صفحة في اربع او خمس ساعات.

من المعلوم ان كل امراة ترضى الرجل ، وما كل رجل يرضى المراة ومعلوم ايضا ان الارتواء يعقبه نوم عميق ، وعدمه يثير الاعصاب ، وان الاطمئنان يعقب العطية الجنسية ويدعو الى الراحة والهدوء ، وان التيقظ والتنبه والتوفز وليدة الخيبة والفشل .

هذا التخطيط له احدى دلالتين الاولى الجهل في التكوين الطبيعي للانسان وتركيب الجسد ، وتاثر حركاته بعضها من البعض الاخر .

والدلالة الثانية هو التلفيق غير الموفق ، تلفيق هذا اللقاء الخائن وقد صورت فيه رغبتها المكبوتة لما تتمنى وقوعه وتشتهيه لا لما وقع بالفعل .

ليس مثل هذه السقطة بالكثير في الكتابين ، بل الكثير تكرار الصور وتشابكها ، وترديد العبارة اكثر من مرة واحدة والاسراف في الوصف والمغالاة فيه .

*

كتبت هذه السطور وانا في دمشق ، وسمعت من اقرب المقربين من وسط كوليت سهيل خولاي والعشيق ان المؤلفة العصرية المتحررة دوزنت اوتار قيثارة نيرون وهيأتها لانشاد نغم نشاز جديد ، وحريق جديد من نوع « ايام معه وليلة واحدة » في طريقه الى الظهور .

لا مرحبا بأيام كوليت ولياليها ومآسيها ، ولا سلام عليها لان خلية شهدها تنقع السم القاتل !

القاهرة — حبيب الزحلاوي